زخرفة المساجد

للأستاذ الشيخ سيد رجب

كان الدكتور زكي مبارك قد كتب في بعض أعداد (الرسالة) الغريبة كلمة من « شجون حديثه » يدعو بها إلى زخرفة المساجد وتنميقها ، ذاهباً إلى أن هذا مما يرفه عن النفس بعد مشاغل العمل ، ويهدئ الخاطر ، ويلهم الروح ، ويرغب في المساجد ، ويعين على العبادة ! وذاهلاً - وهو مؤلف (التصوف الإسلامي) وإن كنا لم نره - عن أن العبادة الحق إنما تنبعث من نبع الإيمان في القلب ، ومن مثابة الهداية في النفس ، وتستلهم الروح لا المادة ، وتتجه بحقيقتها المعنوية إلى السماء لا إلى الأرض . وهذه حقائق لا ينفع لإيجادها ، ولا يغني في التسبب لها ، أن نملأ الأرض - لا المساجد وحدها - بما يقترحه الدكتور من دُمى وتماثيل وتهاويل وتصاوير ! بل إن كل أولئك لن يكون - إن وجد - إلا مشغلة للحس والوجدان والعقل ، وصارفاً للنفس ، في موقفها الرهيب العظيم مما يجب أن تفرغ له من استغراق وتأمل ومناجاة . وهذا بعض ما من أجله صرحت النصوص الدينية بالنهي عن زخرفة المساجد وتنميقها .

ذهل الدكتور عن كل هذا ، وأخذ - وهو الرجل الأزهري رغم صبغته الجديدة - بما لا ينبغي أن يؤخذ مثله به ، ولا أن يغلط في حقيقته ! فلما قام فقيه في المسألة برجعه إلى الصواب ، وإرشاده للحق ، استنكف ذلك وكبر عليه ، وأخذته العزة بنفسه ، فلم يرض لها أن تخطئ ، ولم يرض لها - إن هي أخطأت - أن يردها عن الخطأ ناصح من المسلمين ! والكلمة التي كتبت في الرد عليه بغير توقيع ، وفي عجلة لا شأن للوعظ والوعاظ بها ؛ ولكن هذا لم يكن من مصلحة الدكتور أن يفكر فيه ، وليس من شأنه أن يعرفه ، فإنه عسى أن يقصد عليه ما قصد ، وهو لا يقصد إلا الأزهر والأزهريين

وعلى هذه النية وهذا الأساس هاجم الدكتور الأزهر في أشخاص الوعاظ ، وأقحم ذكرى الرجل الفاضل والمؤمن البار المرحوم الشيخ عبد ربه مفتاح في حديثه ، وعرض نفسه وعلمه وثقافته وفكره الحر الطليق على شباب الأزهر عامة ، وكلية اللغة العربية خاصة ، وسمى الدكتور ذلك كله « زخرفة المساجد » .

بيد أن الدكتور قد عرض في كلمته الأولى ، في « الرسالة » الصادرة بتاريخ (٢٦ من جمادى الآخرة سنة ١٣٦٠) لما يعود هو وأمثاله أن يلوذوا بحصنه كلما حزبهم الأمر في ميدان من ميادين الخلق والعلم والدين ، وهو المناداة بحرية الفكر ، واستطلاع

وثالث في (أخبار عزة الميلاء) ، ورابع في (قيان الحجاز) ، وخامس في (قيان مكة)[1] . وكان لأبي الفرج الأصبهاني صاحب الأغاني كتاب في (الإماء الشواعر) ، وللمفجع الشاعر الشيعي كتاب في (أشعار الجواري) ولأحمد بن مطرف القاضي المصري[2] كتاب في (النوائح)

وألف الطبري المحدث الفقيه[3] كتاب أمهات الأولاد ، وألف الشافعي كتاب (عتق أمهات الأولاد)

١٣ — ونضيف إلى ذلك فصولاً كثيرة مبعثرة في كتب الأدب خصت بالنساء وأخبارهن وصفاتهن وأحوالهن ، كالعقد الفريد لابن عبد ربه ، ونهاية الأرب للنويري ، وربيع الأبرار للزمخشري ، وعيون الأخبار لابن قتيبة ، وغير ذلك . . .

* * *

تلك جريدة بأسماء الكتب التي ألفت عن النساء وأحاط بها علمي ؛ ولعل هناك كتباً كثيرة غفلت عنها فلم أذكرها ولم أعلم بها[1]

أفبعد ذلك كله — وإن قل — تقولون إن العرب لم يحفلوا بالنساء ولم يؤلفوا في أخبارهن . . . ؟

(دمشق) صنوح الدين المجد

(١) الفهرست ص ١٠٢ و ١٤٨

(٢) أنظر أخباره في ياقوت

(٣) أنظر ياقوت . ووفيات الأعيان

(١) لعل من القراء من يذكر لنا كتباً أخرى سهونا عنها ليستفيد أولئك الناس

الصراخ والعويل على ما يحاول رجال الدين الرجعيون الجامدون من حجر على العقل ، وتكبيل للرأى ، ومناوأة لهذه الحرية !! وتلك ناحية لا نحب أن يخلو حديثنا من الكلام فيها ، إحقاقاً للحق ، وإرشاداً للصواب ، وحرساً على فائدة من تعوزه هذه الفائدة من القراء

وفى « الرسالة » التالية ، الصادرة بتاريخ (٤ من رجب) عرض الدكتور لحضرة الفاضل المحترم مفتش الوعظ ، فضيلة الأستاذ الشيخ محمد عبد اللطيف دراز من أجل كلمة ألقاها فى مجلس النواب ، وهذه أيضاً لا نحب أن نتركها حتى نحاسب الدكتور عليها

حرية الفكر :

يظن بعض الناس أن الحرية هى التحلل من كل حرمة ، والانطلاق من كل قيد ، والخوض ما وسع المرء أن يخوض فى كل ما يسنح لخاطره ويستهوى نفسه ! فإن بصّرهم ناصح بالصواب ، أو ذاد عن حقه المعتدَى عليه ذو حق ، هب أولئك الناس فى وجهه ، يدقون طبول الحرب للدفاع عن الحرية المضومة والفكر المقيد ، جاهلين أن حرية الناس — إلا من العبودية لخالقهم جل جلاله — هى أول عقيدة دعا إليها الرسل والأنبياء ، وأول مبدأ قام من أجله ذلك الصراع الطويل الهائل فى تاريخ البشرية بين الحق والباطل والسماء والأرض . وهل قدس كتاب أو شريعة أو أمة ، ما قدس القرآن الكريم ، والسنة المطهرة ، وسلف الإسلام الصالح ، من هذه الحرية والدفاع عنها وتحقيقها فى النفوس وتقريرها بين الناس ؟ ومَن أولى بأن يعرف هذا الكتاب والسنة وسلف الإسلام من أعلام الملة وجنود الدعوة ورجال الدين ؟ !

ولكنها الحرية بمعناها الحق ، وفى هيئتها التى برأها الله على سنته من الوزن والتقدير والإحكام ، ومراعاة العدل والحق فى كل ما يبرأ وما يبدع ، فلا يتجاوز خلق حده ، ولا يخرج عن طوقه ، ولا يطغى شىء على شىء فى وجوده وكنهه ، سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا

هذه الحرية الموزونة المقدرة التى لا تجهل ولا تظلم ولا تطغى ، هى الحرية التى يقرها ناموس الوجود ويعرفها العقل ويدعو إليها الدين ؛ وهى الحرية التى يطلبها الناس ويهيمون بها ويتفانون فى الدفاع عنها ، لأنهم يرون فيها قوام وجودهم وصلاح حياتهم ، وهو بعض ما من أجله أعزها الله ومكن لها تمكيناً ، فجعلها فطرة النفس وصبغة الخلق وحقيقة التوحيد

فهل سمع بهذا أو عرفه من قبل أولئك الذين يكثرون من تصنع الغيرة على الحرية والدفاع عنها ، ليبرروا بها كل مخزاة ، ويدّرعوا بها عند كل طغيان ؟ !

هل علم هؤلاء — وهم لا يقفون الحرية إلا حيث تناوئ الدين والخلق وتقاليد الإسلام — أنهم بهذا يسيئون إليها ولا يحسنون ، ويهدمونها من حيث لا يشعرون ؟ !

إن علماء الدين — يا قوم — لا يمكن أن يكونوا أعداء الحرية ، لأن الحرية من صميم الدين ، ولكنهم أعداء الفوضى وأول هادميها ، وهذا واجبهم الذى لن يتخلوا عنه مهما لاقوا فى سبيله من أذى واعتداء

الرياء الاجتماعى

طالما وصف الدكتور زكى مبارك مخالفيه فى الرأى بهذا الوصف ، وعلى الأخص أثناء مناقضتهم إياه فى مسألة الأغنياء والفقراء ، وأسباب الفقر وأسباب الغنى ، مع أنهم كانوا يستمسكون بحق معروف لم نر لهم فيه مخالفاً من القراء ، وكان هو يدافع عن شاذ من الرأى لم يوافقه عليه أحد ؛ وقد ظل سادراً حتى أرسل إليه القراء يخيرونه بين اختفائه من الميدان الأدبى ، أو سكوته عن هذا الباطل ؟ فهل يسمح الدكتور أن نستعير منه هذا الوصف لنصف به تصنعه الدفاع عن مصر والإشفاق عليها من تلك النصيحة المخلصة التى أسداها فضيلة الأستاذ الشيخ دراز مفتش الوعظ إلى الأمة والحكومة فى مجلس النواب ؟ ! إننا لا نجد وصفاً أصدق منه لموقفك هذا يا دكتور . أيكون الأستاذ دراز متحاملاً على مصر وطاعناً فيها ، ومقرراً غير الحق حين يقول بلسان العالم المصلح والناصح الغيور ، ناصحاً أمته داعياً إلى الإصلاح فيها : « أصبحت هذه البلاد لا هى بالبلاد